

العودة المتخيلة - المستقبل

روبين عدّي*

العيش في دولة اتحادية افتراضية**

١٥ أيار/مايو ٢٠٤٨، الساعة السابعة صباحاً. ها هو أحمد يستيقظ، فالיום دوره في إعداد القهوة لـ "الدار". يُسرّع في العمل لأن جاره موسى سائق الباص يغادر عند الساعة الثامنة إلا ربعاً إلى عمله، وهو يُعلّق كثيراً من الأهمية على تناول قهوته على مهل في أثناء حديثه مع جيرانه.

أحمد سيُعدّ الطاولتين في فناء "الدار"، واحدة للشباب والأخرى للكبار. يجلس الشبان أحياناً مع الأصغر سناً، ويحدث هذا في اليوم الذي تكون النقاشات جادة ويتعين عليهم اتخاذ قرار. خلاف ذلك، يفضّل الشباب أن يختلي بعضهم ببعض ليخبر كل منهم الآخر عن أمسياته في البارات الرائجة أو قاعات الرقص في الجوار. أمّا الآخرون فيفضلون التعليق على الأحداث السياسية أو آخر الأخبار المحلية.

رائحة القهوة المعشّقة بحب الهال تتسرب إلى الفناء. يخرج سكان "الدار" بصمت من منازلهم، ويقوم من لا تزال آثار النوم باقية عليه ببعض حركات التريّض التي تعني أنه أمضى سهرة جيدة، بينما يصل البعض الآخر وهم لا يزالون يتشاءبون ليقولوا أنهم لم ينالوا قسطاً كافياً من النوم. تغمرهم نضارة الصباح، لكن رائحة القهوة التي تعيق في الفناء تجعل أمين يبتسم؛ أمين الذي هو صاحب مشروع تناول القهوة الصباحية المشتركة في "الدار" الواقعة في إحدى ضواحي المدينة.

في كثير من الأحيان يُحضر بعض الجيران من سكان "الدار" كعكاً مع السمسم لتناوله مع القهوة. إنه كعك مُعدّ في المنزل، وكل يخبزه على طريقته الخاصة، وصانعه لا يخفى على أحد. أحياناً تُعدّه إستير أو سليمة أو أحمد. أمّا كعكات اليوم فهي من صنع خديجة التي تضيف إليها الكمّون لتعطيها مذاقاً خفيفاً لاذعاً، لكنها بالتأكيد أضافت شيئاً آخر غير ذلك لا تبوح به.

* كاتب لبناني يهودي مهاجر إلى فرنسا.

** مقالة بالفرنسية خاصة بالمجلة.

ترجمة: صفاء كنج.

بعد إلقاء تحية الصباح المعتادة التي يحرص الجميع على أدائها، يجلسون ويرتشفون القهوة ويشكرون أحمد على إعدادها وعلى مذاقها.

وعلى الرغم من أن اليوم هو يوم عادي، فإن النقاش بين الكبار يدور حول الوضع المتوتر في شركة غيمدرايفر (Gamedriver). فالشركة تناقش خطة اجتماعية تستغني بموجبها عن عدد من العاملين فيها. يشعر جميل بالقلق، فقد حان موعد تجديد عقده للمرة الخامسة في الشركة. هل سيكون ضحية هذه الخطة؟ لم تعد الوظائف مضمونة منذ فترة طويلة وعقده ينتهي خلال خمسة أيام وهو لا يعرف ما إذا كانوا سيعرضون عليه عقداً جديداً.

غيمدرايفر شركة حديثة ناشئة فازت بعقود كبيرة لدراسة التنوع البيولوجي. النباتات البرية تزداد ندرة، فبعد انقراض الحيوانات البرية ها نحن نشهد اندثار النباتات البرية. قرر المجلس الاتحادي الذي يدير دولتي إسرائيل وفلسطين تكريس جهد كبير لتوثيق وحماية النباتات البرية. وما يثير قلق الحزب البيئي هو استغلال نتائج الدراسات لمصلحة التحالفات التجارية الكبيرة التي تبحث عن منتجات جديدة لتطورها لأن المواطنين لا يتقبلون المنتجات الحالية على الإطلاق. ولقد دفع هذا الرفض للمنتجات المصنعة الناس إلى زراعة ما يأكلونه بأنفسهم، أو إلى شراء المنتجات الاستهلاكية من الشبكات الموازية. هذه الأنماط الجديدة للاستهلاك هي التي تثير مخاوف التحالفات التجارية. يبحث جميل وديفيد، وكلاهما عضو في الحزب البيئي، عن طرق لمساعدة شبكات الإنتاج الموازية هذه على حماية نفسها بشكل أفضل من التحالفات التجارية. إنهما يفضحان ما يسببه تصنيع إنتاج الغذاء من أضرار. وهما فخوران جداً بنجاحهما في إقناع "دارين" متجاورتين بالانضمام إلى التعاونية المحلية التي تدير شبكة لشراء وتبادل المنتجات المحلية. ستنجح هذه العضوية لسكان «الدارين» المشاركة في ورش الإبداع المشتركة في الحي لصنع أشياء بسيطة ضرورية مثل الأثاث والأواني المنزلية وإصلاح الأجهزة الكهربائية والدراجات وأجهزة الكمبيوتر وغيرها، والمشاركة في سوق تبادل المواد الغذائية وإنتاجها. كل عائلة تجلب فائضها إلى المتجر وتستفيد في المقابل من المنتجات المتاحة التي جلبها الأعضاء الآخرون. أمّا قيمة التبادل فيحددها بصورة عامة مدير المتجر، وهو رجل ذو خبرة ينتخبه أعضاء الجمعية التعاونية.

لا يكفّ جميل عن الحديث عن المشروع الجاري لإعادة تأهيل الجدار الأخضر الذي كان يُعرف سابقاً باسم جدار العار، وقد بُني في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين من أجل حماية إسرائيل. ويشمل المشروع زرع الجدار بالنباتات الصالحة للأكل ونباتات الزينة، كما ستُهدم أجزاءه التي تعوق حركة المرور، وستُفتح أجزاء في كل مكان لتسهيل التواصل بين أحياء المدينة، وستقام ممرات على طول الجدار لإيجاد مساحات للعب والرياضة والاستراحة.

هذا الجدار الذي زاد في معاناة الفلسطينيين عدة أعوام، وقضم أجزاء من الأراضي الفلسطينية لمصلحة المستوطنين، سيصبح مكاناً للمشى والالتقاء على طول المسارات المظلمة والعترة. هذا المشروع الذي أوكل إلى تعاونية "الطبيعة والصحة" الزراعية التي يعمل فيها جميل، تمكّن من فرض قواعد أخلاقية وبيئية لإدارته بما فيها إنشاء ممرات للمشى

ومصطبات ومقاه ومساحات للنزهة وبساتين مشتركة لزراعة الخضروات، ومساحات للحفلات الموسيقية وعروض للفنانين من الجوار وأماكن أخرى.

كيف وصلنا إلى هنا؟ يشرح سلام للشباب والسياح، وهو طالب في التاريخ يعمل مرشداً سياحياً من حين إلى آخر، مجريات الأعوام الأخيرة التي أدت إلى قيام هذه الدولة الاتحادية التي يعيش فيها شعبان: الإسرائيلي والفلسطيني. وهو يشرح أنه لفهم هذا التغيير علينا أن نفهم سياق الأحداث. لقد شارفت آبار النفط على النضوب، وانتقلت أوروبا والولايات المتحدة وحتى الصين إلى استخدام السيارات الكهربائية اعتباراً من سنة ٢٥ بعد الألفين، وباتت بالتالي تحتاج إلى كمية أقل من النفط. لم تعد المملكة العربية السعودية ودول الخليج مهمة بالنسبة إلى القوى العظمى الأميركية والأوروبية. أصبحت الصين هي القوة المهيمنة على حساب الولايات المتحدة في منتصف الثلاثينيات، في البدء في آسيا وأفريقيا، وهي الآن بعد أن قوي نفوذها إلى حد كبير في الشرق الأوسط، ترغب في إحلال السلام في هذه المنطقة من أجل تعزيز طريق الحرير الجديدة التي شقتها لتصل بين الصين وأوروبا. لقد أضحت هذه الطريق محوراً استراتيجياً للتبادل التجاري، وبات معظم الصادرات يسلكها. تحولت روسيا إلى قوة إقليمية صغيرة تكافح من أجل الحفاظ على هيمنتها على بعض دول الاتحاد السوفياتي السابق. نحن نعيش فترة من الهدوء في المنطقة. وباتت المحكمة الدولية في لاهاي، التي تعرضت للانتقادات لفترة طويلة، تحظى باحترام كبير منذ بضعة أعوام. وهذه المحكمة دانت إسرائيل جزاء ممارستها سياسة الفصل العنصري والتمييز تجاه الفلسطينيين في عدة مناسبات. وأخيراً، قررت الأمم المتحدة فرض عقوبات على إسرائيل إذا لم تضع حداً لممارسات التمييز، فتلتزم بالسماح بحرية مرور البضائع والأشخاص بين غزة وشرق فلسطين، وتفكك معظم المستعمرات في الأراضي المحتلة، وتعوّض الفلسطينيين. حاولت الحكومة الإسرائيلية الاعتراض على ذلك، لكنها لم تجد حليفاً له وزن يدعمها. لقد فضلت الولايات المتحدة حليفها الرئيسية الامتناع من التصويت في مجلس الأمن خوفاً من العزلة، وبعد أن اشتدت الاحتجاجات الداخلية على النفقات المالية التي تُهدر لمصلحة إسرائيل بدلاً من توظيفها من أجل تحسين حياة الأميركيين. في أعقاب قرارات الأمم المتحدة والضغوط المحلية التي مارستها "حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات"، توقفت الولايات المتحدة وكذلك معظم الدول الأوروبية عن توفير الدعم الاقتصادي والعسكري لدولة إسرائيل.

لم تجد الصين وروسيا أي مصلحة لهما في الحل محل الولايات المتحدة الأميركية، وبات على إسرائيل أن تجد بمفردها حلاً للمشكلة الفلسطينية وعزلتها الدولية. لقد أدى تحرك "حملة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات" إلى إفقادها حصصاً كبيرة في السوق، كما أن التوتر في البلد والحرب التي تخوضها ضد الفلسطينيين أنهكا ميزانيتها، فتعين عليها أن تجد حلاً قبل أن تجد نفسها محاصرة فيما يشبه الغيتو. ونجح حزب العمل في العودة إلى السلطة في إثر فشل الحكومة اليمينية الإسرائيلية في نيل تأييد القوى المهيمنة

من أجل التغلب على الأزمة الاقتصادية التي اندلعت منذ ارتفاع تكلفة النقل التي رفعت أسعار المنتجات الإسرائيلية في الأسواق الأوروبية والأميركية، وتكلفة النفقات العسكرية التي صار لزاماً عليها أن تتحملها بمفردها من الآن فصاعداً.

لقد اختار حزب العمل بعد قضاؤه فترة طويلة في المعارضة، ومع تولي قيادة الحزب جيل جديد أكثر براغماتية نأى بنفسه عن الفكر المسياني العائد إلى ما قبل الألفية الثانية، سياسة متعارضة تماماً مع ما سبق. فالسخط الاجتماعي الذي حملته إلى السلطة كان يتطلب حلاً جديداً، ولهذا اعتمد برنامج استثماري كبير في المجال الاجتماعي وفي البنية التحتية، وجرى تخصيص حد أدنى من الدخل المضمون لمكافحة الفقر الذي وصل إلى نقطة حرجية. ومن أجل وضع حد للعنف الاجتماعي وتحسين صورة إسرائيل أمام المجتمع الدولي، اتخذ الحزب سلسلة من المراسيم التي تضع حداً للدولة البوليسية والتمييز: حظر التمييز في التوظيف بين جميع الإسرائيليين وإطلاق برنامج استثماري في المناطق التي عانت جزأً التمييز حتى الآن، وضمان حرية الحركة وحظر سجن القاصرين وحظر التعذيب وتحديد فترة السجن من دون محاكمة بخمسة أيام كحد أقصى. لقد تخلى عن هذه الممارسات التي سادت في ظل الحكومات السابقة. وفي أعقاب تبنيها برنامجاً هذا الهادف إلى تغيير صورتها، سعت الحكومة للتواصل مع جيرانها من أجل الخروج من عزلتها؛ هؤلاء الجيران الذين كانوا يُعدّون حتى أمس أعداء. كانت تأمل من لبنان وسورية اللذين أتعبتهما الحروب المستمرة منذ عدة عقود، بأن يساعداها في الخروج من عزلتها والسماح لها بتطوير صادراتها.

لكن ما دامت هذه الحكومة لم تحل المشكلة الفلسطينية، فإن أي استراتيجية للانفتاح على السوق الإقليمية لم تكن لتحظى بالديمومة. وهكذا أصبحت فكرة الفيدرالية التي رفضتها الحكومات المتعاقبة هي السبيل الوحيد للخروج من الطريق المسدودة. وكان ينبغي لاستراتيجية السلام مع الفلسطينيين أن تحسّن صورة إسرائيل، وأن تتيح إنهاء حملة المقاطعة ضدها، وأخيراً مساعدتها على فتح الحدود مع جيرانها، فوُقت اتفاقيات مع منظمة التحرير الفلسطينية تسمح للفلسطينيين بالحصول على جنسية الدولة الفيدرالية (الاتحادية) من دون الالتزام بالعيش فيها، وفي إطار هذه الدولة الاتحادية، استعاد الفلسطينيون حقهم في العودة والاعتراف أخيراً بانتمائهم إلى فلسطين. هكذا احتفظ كل طرف بدولته، غير أن السكان حصلوا على جنسية هذا الكيان الجديد الذي يجمعهم. إنها دولة إسرائيل وفلسطين الاتحادية التي يحظى فيها السكان بحرية الحركة والعيش في أرجائها كافة. وحصل جميع الفلسطينيون المقيمين في الخارج على الحق في طلب الحصول على جنسية الدولة الاتحادية الجديدة، على أن يتمكنوا بعدها من الاستقرار أينما يشاءوا من أجل الحفاظ على التوازنات المتصلة بالهوية، والتي لا تزال حساسة في الوقت الحالي على الرغم من أن حدتها خفّت إلى حد كبير. ولذلك، تم الاتفاق على أنه خلال العقدين المقبلين لا يمكن للفلسطينيين والإسرائيليين التصويت إلا في دولتهم حتى لو كانوا يعيشون في الدولة الأخرى. وهذه القاعدة التي تنطوي على تمييز لم يتقبلها سوى على مريض جزء من اليسار الإسرائيلي والفلسطيني، لكن تم

الاتفاق على هذا الحل في النهاية تحت الضغط الأوروبي والصيني. ورأى قسم من الرأي العام أنها أكثر حكمة نظراً إلى الماضي القريب، وإلى سوء المعرفة المتبادلة بين الجانبين اللذين لم يلتقيا من قبل إلا في ساحات القتال. وشمل الاتفاق فترة انتقالية مدتها ٢٠ عاماً، وهي المدة اللازمة لتسوية جميع الخلافات بشأن سرقة الأملاك الفلسطينية خلال الحروب المتعددة، ومن أجل تغيير العقلية.

هذه الصيغة الجديدة أثارت سخط اليمين الإسرائيلي، لكنها بدت كحل مستقبلي بالنسبة إلى حزب مستقبل المشرق الذي اقترح من جانبه توسيع الاتحاد الإسرائيلي - الفلسطيني ليشمل لبنان والأردن، ثم سورية، لتشكيل اتحاد دول المشرق. مثل هذا التكتل يمكن أن يكون له وزن وصدقية أكبر، وأن يحظى باستقلالية أكبر عن القوى العالمية العظمى وهي الصين والهند والولايات المتحدة الأميركية وأوروبا. لبنان وسورية منهما مكان في مشكلات طائفية ومشكلات اللاجئين، لكن كي يكون لأي بلد صوت في الساحة الدولية، فإنه لا بد من أن يصبح قوة إقليمية. إن التحالف بين دول الشرق الأوسط هو الذي يعطي هذا المشروع صدقية، وبداً من اختيار الاتحاد بين الجيران مسار واقعي. هذا هو على الأقل مشروع حزب مستقبل المشرق، حتى إن أقر بأن الوقت لم يحن بعد لوضعه موضع التنفيذ. وفي الانتظار، فإن مجرد التعاون بين هذه الدول هو موضع ترحيب.

فيما يتعلق بإسرائيل وفلسطين. الحل ليس مثالياً، لكن الشعبين سئما هذه الحرب: فالمقاومة الفلسطينية التي لم تفت الهزائم الميدانية العديدة من عضدها، حازت تأييد الرأي العام العالمي من خلال قدرتها على الصمود وعدالة نضالها، بينما جعلت "حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات" الاقتصاد الإسرائيلي في وضع صعب، وأصبحت دولة إسرائيل المصرية على استقلالها وقانون عودة اليهود، مجتمعاً يزداد اكتئاباً، وصار عدد اليهود المغادرين أكبر كثيراً من الوافدين. علاوة على ذلك، كانت السياسة التوسعية الإسرائيلية تستمد مبرراتها من اعتمادها على القوة الأميركية، غير أن الولايات المتحدة اليوم تعاني جزاء تراجع قوتها، وقد نأت بنفسها عن إسرائيل. إن إقامة تحالفات محلية هو ما يتيح تعزيز الاقتصاد وضمان استقراره، يتابع سلام الشرح للسياسيين الذين وفدوا بأعداد كبيرة لمحاولة فهم ما يجري في هذا البلد حيث يبني الشعبان، عدواً الأمس اللذان باتا عبئاً على حلفائهما السابقين، نموذجاً لمجتمع جديد. كانت "دور" هذه الضاحية كلها مختلطة ويجمعها توافق لا مثيل له. لقد بدت في عيون عدد كبير من سكان الدولتين نموذجاً للمستقبل، وبات يُنظر إلى الماضي على أنه فترة مظلمة أضنى فيها الناس حياتهم في مجتمع يعاني الإحباط، وتاريخ مثقل يتعين تجاوزه وكذلك أخذ العبرة منه، ولذلك كان كل شخص يبذل ما في وسعه في هذه "الدور".

"الدور" المختلطة هي مشروع وُلد من الرغبة في خلق حلم مشترك انطلاقاً من حلم كل فرد. كانت جزءاً من بنى الحوار التي أنشأها المجتمع المدني لفسح المجال أمام الناس للتعرف إلى بعضهم البعض بصورة أفضل، والتخلص من المشاعر السلبية التي نغصت حياة

العديد من الأجيال السابقة. عاد الفلسطينيون الذين هاجروا متحمسين لتنفيذ هذه المشاريع. إنهم يدركون أنه لم يتم حل جميع المشكلات بعد، ولا سيما تلك المتعلقة بالجيش والتفاوتات في مستوى التنمية والعقلية.

إن موضوع الجيش حساس للغاية. فهو لا يزال مؤلفاً من كيانيين مستقلين، وحتى إن كان للسلطة الاتحادية حق الإشراف، فإن القيادة لا تزال جماعية، كما أن موافقة الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني لا تزال ضرورية للتدخل خارج حدود كل دولة.

ماذا عن الغدا! جميع سكان "الدار" مقتنعون بصحة الخيار ويناضلون من أجل المضي أبعد من ذلك. ويأتي في المقام الأول نزع السلاح النووي، ذاك الوهم القديم الذي ينتمي إلى الماضي، فهو يمثل كارثة على صعيد الطاقة، وتهديداً لبقاء البشرية. إن الطاقة المتجددة هي النموذج الوحيد المستديم في رأيهم، وهي تلك المنتجة من الماء والشمس والرياح، وكلها متاح هنا بالمجان. إنهم يرغبون في الحد من سلطة الدولة الاتحادية والوطنية لمصلحة السلطات المحلية. ويعتقدون أن هذا سيأتي مع تطور الاقتصاد المحلي والشبكات الاجتماعية التي ستقلل بالتدريج الفائدة من وجود الدولتين، وهو ما يجب أن يقلل شيئاً فشيئاً الانكفاء المتصل بالهوية والعنف الذي تغذيه العواطف. وفي غضون ذلك، يناضلون من أجل بناء اقتصاد جديد أكثر شمولية وأقل اعتماداً على تحالفات الشركات العالمية، ومشروعهم يتمثل في العيش بأقصى قدر من الاستقلالية، وهم في الوقت الحالي استطاعوا إنتاج الطاقة اللازمة عن طريق الألواح الشمسية ومعالجة النفايات. علاوة على ذلك، لديهم في بستانهم الخضروات والفواكه الأساسية، ومع التعاونية المحلية يحققون الاكتفاء الذاتي. تبقى لديهم مشكلة التقنيات المعقدة التي لا يستطيعون إتقانها، ولا يتخيلون أن في وسعهم الاستغناء عنها، ولذا، فإنهم لا يزالون يبحثون عن حلول. هكذا اختتم سلام عرضه بأن سرح بنظره نحو الأفق وقد ارتسمت ابتسامة على طرف فمه كأنه يقول إن الإرادة موجودة، لكن الطريق ما زالت طويلة. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(القضية الفلسطينية / آفاق المستقبل - ١٠)

العلاقات المصرية - الفلسطينية

آفاق القضية ما بين المسار الشعبي والرسمي

تحرير الأعرج و محمد العجاتي